



قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552



الظاهرة الاستعمارية في فكر فرانس فانون

The colonial phenomenon in the thought of Frantz Fanon

بعدة براشد^{*1}

¹ جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر.

Key words:

colonization

Revolution

Violence

Indigenous people

The revolutionary left.

Abstract

This study aims to reveal the truth of the colonial phenomenon and to clarify its nature according to Frantz Fanon, who is considered one of the thinkers who distinguished themselves by their advanced position against colonialism in all its forms, especially colonialism that eliminates the existence of a people and a nation to replace them with other peoples, and even makes the indigenous people of those countries serve the new inhabitants who entered that land by force and violence, which they made their only method of dealing with the indigenous people, in addition to the consecration of the values of racial discrimination that rob people of their humanity, and makes them vulnerable to all kinds of injustice and exploitation by colonialism, which works to destroy everything that symbolizes the identity of indigenous peoples. What France did in Algeria by implementing repressive policies is the best evidence of this, as it represents the ugliest images in which a person treats his own kind, and it is the same image that we witness in reality identical to it, the Zionist colonialism that practices violence in all its forms against the Palestinians in the twenty-first century, which represents a setback in the history of humanity.

ملخص

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال: 0000-00-00

القبول: 0000-00-00

الكلمات المفتاحية:

الاستعمار

الثورة

العنف

السكان الأصليين

الاستقلال

اليسار الثوري.

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن حقيقة الظاهرة الاستعمارية وبيان طبيعتها من خلال استجلاء أهم ما يميزها لدى فرانس فانون الذي يعتبر واحد من المفكرين الذين تميزوا بموقفهم المتقدمة المناهضة للاستعمار في شتى صوره، وخاصة الاستعمار الذي يلغي وجود شعب وأمة ليستبدلها بشعوب أخرى، بل ويجعل من السكان الأصليين في تلك البلاد في خدمة السكان الجدد الذين دخلوا تلك الأرض بالقوة والعنف، الذي جعلوه أسلوبهم الأوحد في التعامل مع السكان الأصليين، بالإضافة تكريس قيم التمييز العنصري التي تسلب من الإنسان إنسانيته، وتجعله معرض لشتى أنواع الظلم والاستغلال من قبل الاستعمار، الذي يعمل على تخريب كل ما يرمز لهوية الشعوب الأصلية وما فعلته فرنسا في الجزائر من تطبيقها لسياسات قمعية خير دليل على ذلك، كونها تمثل أبشع صور يعامل بها الإنسان بني جنسه، وهي ذات الصورة التي نشهد واقعا مطابقا لها الاستعمار الصهيوني الذي يمارس العنف بكل أشكاله ضد الفلسطينيين في القرن الواحد والعشرين، الأمر الذي يمثل نكسة في تاريخ البشرية.

المقدمة

ومن هنا كانت الحاجة إلى إعادة تأمل الظاهرة الاستعمارية، من خلال كتابات فرانس فانون، الذي يعتبر من النخب التي عاشت في صفوف الاستعمار اجتماعياً، دراسياً، مهنيًا، لكن بشاعة ما ارتكبه الاستعمار ضد السكان الأصليين من عنف وتمييز عنصري يمتن الكرامة الانسانية بأشجع صور الاهانة، دفنعه إلى اتخاذ موقف معادي للاستعمار بكل مؤسساته العسكرية، السياسية، الإعلامية، والدينية، فصار يرى أن الاستعمار هو الشر المطلق، الذي يستحيل التعايش معه، أو الدخول معه في حوارات سياسية، ساعده في اتخاذ هذا الموقف تكوينه العلمي كونه طبيب نفساني، وتجربته المهنية في صفوف الاستعمار كجندي وطبيب في الميدان الصحي. كل ذلك ساهم في تحول موقفه السياسي والفكري تجاه فرنسا المستعمرة وكل ضروب الاحتلال لدول العالم الثالث.

ولبيان الأمر أكثر تشير إلى بعض المعالم في حياته فقد ولد فرانس فانون بمدينة "فور دي فرانس" عاصمة جزيرة المارتنيك عام 1925م، عاش في حضن عائلة بورجوازية صغيرة من الطبقة البورجوازية المتوسطة في جزيرة المارتنيك، عانت بدورها مرارة الاضطهاد الاستعماري وذلك، تشير اغلب الدراسات التي ترجمته لسيرته أنه من أصول افريقية، عرف عنه منذ دراساته الابتدائية ثم الثانوية أنه كان شغوفا بالمعرفة وطلب العلم بل كان متفوقا في دراس، واصل دراسته الجامعية في مجال الطب وانهاها مع نهاية عام 1951، وتشير اغلب الدراسات حول فانون أنه لم يقتصر في دراسته على الطب بل كانت له اهتمامات فكرية فلسفية وأدبية، وسياسية، وبعد زيارة الى المارتنيك، عاد إلى فرنسا، حيث اشتغل في مصحة مع الاسباني، الدكتور توسكفيل، الذي أفاده في ميدان العلاج الاجتماعي، طلب حينها منصبا في مستشفى افريقي لكن طلبه رفض، فقبل آنذاك بعرض من الولاية العامة في الجزائر، فالتحق بمستشفى الامراض العقلية في البلدية عام 1953، الذي كان يعتبر أهم مستشفى من نوعه في إفريقيا (فانون، 2009، صفحة 21).

تصنفه بعض الدراسات الأكاديمية ضمن أعلام المدرسة النقدية في علم الاجتماع المعاصر، لأهمية اسهاماته المتعددة والمتشابهة مع مختلف قضايا العصر، تميزت أفكاره بطابعها الثوري خاصة في ما ارتبطت بالمشكلات التي تعانيها البلدان الافريقية ودول العالم الثالث عامة، فقد أثارت طبيعة أفكاره الثورية المناهضة لكل أشكال الاستعمار جدلا واسعا بين أوساط المثقفين من كافة الاتجاهات بين معارضين ومؤيدين، إلا أن اسم فانون وفكره اقترن بكفاح الشعوب المضطهدة وبصراع العالم الثالث ضد الاستغلال والاستعمار للمطالبة بالحرية عن طريق العنف (فياض، 2017، صفحة 07)، الذي اعتبره فانون وسيلة مبررة ولا مناص منها بيد هذه الشعوب المستعمرة المضطهدة لتحقيق وجودها واستقلالها واسترجاع سيادتها وكرامتها المغتصبة.

شكلت الظاهرة الاستعمارية موضع تأمل من قبل عديد المفكرين على مستوى العالم سواء من داخل الشعوب المستعمرة أو من خارجها، نظرا للضرر الذي الحقته بالسكان الاصليين في البلاد التي مسها هذا الوباء، وزاد الاهتمام بهذه الظاهرة مع ميلاد الثورة الجزائرية التي شكلت طيلة سنواتها حدثا متفردا بأبعادها النضالية الثورية الوجودية، ذلك أنها شكلت إيذانا وإعلانا لميلاد وانبعث أمة بكل ما تحمله كلمة أمة من المعاني، وقد جلب لها ذلك الكثير من التضامن والدعم والمساند من قبل الكثير من شعوب العالم على اختلاف اقطارهم ولغاتهم وهوياتهم واديانهم، وحتى من الفرنسيين والأوروبيين انفسهم من ساند ودعم ثورة الشعب الجزائري وكل الشعوب النائرة طلبا لحريتها وحررا للاستعمار، الذي حرماها من كل مقومات الحياة والوجود، في هذا الظرف التاريخي الفاصل في تاريخ الشعوب الافريقية وعلى رأسها الشعب الجزائري نجد الكثير من النخب الفكرية والسياسية التي أعلنت مساندتها ووقوفها الى جانب الانسان النائر في ثورته العادلة بغية الانعتاق من نير الاستعمار، وفي القلب من هذه النخب الطبيب النفسي والمفكر فرانس فانون الذي حين نعرفه يجب أن نقول أنه جزائري لأنه هو من أعلن ذلك في الكثير من كتاباته بل وأختار أن يدفن بأرضها، ولاستجلاء موقفه من الظاهرة الاستعمارية عامة نطرح الاشكال التالي: بأي معنى طرح فرانس فانون الظاهرة الاستعمارية؟ وما موقفه منها؟

بداية لابد من الاشارة إلى أن العودة إلى دراسة الظاهرة الاستعمارية ليس من قبيل الترف الفكري، بل إن الأمر يعود إلى أمرين أساسيين هما:

الأول: هو أن الاستعمار ألحق أضرارا وخرابا بالدول التي حل بها لا زالت آثاره السلبية على البيئة والبشر إلى حد الساعة، وممت خلفه الاستعمار الفرنسي بتجاربه النووية في الصحراء الجزائرية على البشر والشجر والحجر والحيوان، بل بما خلفه من حقول ألغم في المناطق الحدودية الشرقية والغربية من ألغام لازالت تحصد الأرواح.

الثاني: هو الاحتلال الصهيوني باعتباره استعمارا إحلليا، كونه يلغي وجود شعب بنظامه القيمي والمعيشي والاجتماعي ليستبدله بشعب وقيم نمط عيش مغاير، وهذا ما يسعى له الصهاينة كونه يسعون لإلغاء وجود شعب ضاربة أصوله في أرض فلسطين في أعماق التاريخ، ويحاول استبداله بشتات من اليهود عملوا على جمعهم من شتى بقاء الأرض تحت مبررات عقائدية تارة، وإغراءات مادية تارة أخرى، حيث يم جلبهم من مختلف بقاء الأرض تحت رعاية قوى الاستعمار الحديث، بمنحهم مختلف التسهيلات وضمان الحماية لهم لممارسة شتى أصناف العنف ضد الفلسطينيين، قتل وتهجير وتجويع. لذلك يعتبر هذا الاحتلال امتداد للاستعمار الحديث الذي كانت تقوده دول أوروبا الغربية في البلدان الافريقية والآسيوية.

جديد بكل مقوماتها العرقية، الثقافية، اللغوية، والدينية التي تكفل لها التميز عن الغير وتضمن لها الحق في الوجود مثل بقية شعوب الأرض على قدم المساواة.

فمواجهة الاستعمار كما صاغها فانون في معذبو الأرض ليست مجرد فعل عبثي، كما أنه فعل يسمو على كل الأنانيات الفردية أو الضئيلة الضيقة، فهو غير مرتبط بمكاسب فردية أو مادية ضيقة إنما هو فعل يتطلب من الأمة تسخير كامل طاقاتها الحية وتفعيل كل مقوماتها لتكون في مستوى الحدث باعتباره لحظة ميلاد وانبعث من تحت الركام، لذلك سيشكل كل فعل في هذا المسار انقلابا قيميا ووجوديا ضد المستعمر، ذلك أنه سيقود إلى محو الاستعمار والاثار المدمرة التي له على تلك الشعوب وفي هذا كتب فانون قائلا « إنما اخترت أن اتحدث عن هذا النوع من المحو الذي يحدد في البداية كل إزالة للاستعمار، والحق أن دليل النجاح إنما هو تبديل صورة المجتمع تبديلا تاما ... إن ضرورة هذا التبديل قائمة في وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمرين على حالة فجأة قاهرة. ولكن احتمال هذا التبديل يعيشه أيضا وجدان "نوه" آخر من الرجال والنساء هو نوع المستعمرين، على صورة مستقبل مروع» (فانون، معذبو الأرض، 2015، صفحة 39).

لذلك يعتبر أن العمل على إزالة الاستعمار إنما يرنو إلى تغيير الأوضاع السائدة وفق تغيير نظام العالم، وبذلك يصبح كل كفاح ضد الاستعمار إنما هو تغيير جذري لمنظومة القيم السائدة التي يستمد منها الاستعمار وجوده ومبررات استمراره في قهر تلك الشعوب واستغلالها ابشع استغلال، ولا يتحقق ذلك حسب فانون إلا بمقدار إدراك الصناعة للتاريخ التي تهب له شكله ومضمونه. إن محو الاستعمار إنما هو نزاع بين قوتين متعارضتين ومتناقضتين أساسا، وجود إحداها يستلزم زوال الأخرى بالضرورة، قوتين تستمد كل منهما صفاتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الظرف الاستعماري وينميه، إن المواجهة التي يجب أن تم بين هاتين القوتين إنما تتم تحت شعار العنف لا غير، كما أن تساكنتهما أو قل استغلال المستعمر للمستعمر إنما تلاحق بدعم قوي من الحراب والمدافع إن المستعمر يستمد حقيقته، أي خيراته من النظام الاستعماري.

وتبعا لذلك سيصبح كل فعل يهدف لمحو وزوال الاستعمار والقضاء عليه، في العمق هو فعل وجودي، هو فعل تأسيسي لبناء منظومة قيم جديدة لبها الحرية والكرامة الإنسانية، لأنه سيعمل على تغيير الوجود بصفة أساسية وجذرية، لأنه استرجاع لماهية وهوية بشر سحق الاستعمار ماهيتهم وألغى هويتهم، وأخرج من دائرة الإنسانية، بلا رحمة، لهذا ستعيد لهم الثورة -من أجل الحرية والاستقلال عن الاستعمار- ماهيتهم ووجودهم ليصبحوا أناس فعالين يعودون لصناعة التاريخ ويدخلون في تياره دخولا رائعا كما قال فانون.

ذلك أنه يعتقد أن أزالته الاستعمار والعمل على محوه «يبث في الوجود ايقاعا خاصا يجيء به الرجال الجدد، ويحمل إلى

هذا الموقف الفكري من الاستعمار الغربي لبلدان العالم الثالث تشكل لديه بفعل التجارب التي عاشها والتي كشفت الكثير من الحقائق عن الرجل الغربي الأبيض، أول تجربة ساهمت في إعادة مراجعة موقفه من الاستعمار هي تجربته التي عاشها كجندي في صفوف الحلفاء إلى جانب أصدقائه خلال الحرب العالمية الثانية « فقد كانت هذه المرحلة بداية عهد جديد له، ونظرا لكونه كان ميالا إلى العمل لم يكتف باتخاذ موقف نظري عاطفي لتأكيد زنوجيته، بل فكر في وسيلة للخروج من المارتنيك، ليلتحق بقوات الحلفاء مثل الكثير من المارتنيكيين، وذلك من أجل القتال مع قوات فرنسا الحرة إلى جانب الأمريكيين والانجليز ضد ألمانيا النازية، بعد سقوط باريس عام 1941م » (عيسى، 2018، صفحة 82)، أما التجربة الحاسمة في موقفه سابقا فهي ذهابه للعمل في الجزائر أين سيجد نفسه في قلب الثورة الجزائرية والتي ستلبى له أحلامه في تحرير الإنسان الأفريقي من الاستعمار، هذا ما سنبينه لاحقا.

موقفه من الاستعمار

عبر عن موقفه من الاستعمار قولاً وفعلًا أما عن مواقفه العملية فنأجل الحديث عنها للعنصر اللاحق، أما ما عبر عنه في كتاباته فتكشف عن إنسان عرف الاستعمار معرفة جيدة مكته من بناء تصور واضح عن القوى الاستعمارية لا لبس فيه ولا يشوبه شك، وأحس بمعاناة الشعوب المضطهدة، فسبشك مؤلفه الشهير المعنون "معذبو الأرض" - الذي نشره عام 1961 والذي أُلّفه عندما كان سفيراً للثورة الجزائرية، مؤلفاً ثورياً في وجه الاستعمار الغربي، يروي فيه معانات الشعوب المستعمرة من شتى أنواع الاحتقار والامتهان التي يمكن أن تطال إنساناً على وجه المعمورة، لذلك سيجعل من تلك العذابات مبرراً كافياً يدفع الإنسان الأفريقي للثورة، بل سيجعل من كل فعل ثوري ضد الاستعمار مبرراً، لذلك اعتبره البعض "معذبو الأرض" «منهجا ودليلا للشعوب المستعمرة» (لونيس، ب. ت، صفحة 72)، للانعتاق والتحرر من ربقة الاستعمار، لأنه لم يحمل لهذه الشعوب غير الفقر والقهر والموت ومختلف صنوف العذاب والألم، فالثورة ضد الاستعمار في كتابات فرانس فانون في اعتقاده ستعطي معنى للموت. لأنه تبعا لذلك صار كل عنف ضد الاستعمار مشروعا «سواء أقلنا تحريراً وطنياً، أم نهضة قومية، أم انبعاثاً شعبياً، أم اتحاداً بين الشعوب، وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة، فإن محو الاستعمار هو حدث عنيف دائماً، إن محو الاستعمار على أي مستوى درسناه» (فانون، معذبو الأرض، 2015، صفحة 39) يعتبر مبرراً لأنه في اعتقاده أن مواجهة الاستعمار إنما هي تهدف في جوهرها إلى العودة إلى الوضع الطبيعي الذي كانت عليه البلاد المستعمرة قبل دخول الاستعمار وهو استعادة الشعوب المضطهدة كامل سيئاتها على أرضها وذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بالعنف الذي يمكنها من استرجاع كامل حقوقها بشكل كي مطلق، بلا مراحل انتقالية ولا مفاوضات مدلّة، وبذلك فقط سيأتى لتلك الأمم أن تنبثق وتظهر للوجود من

لذلك يرى أن دراستنا للعالم الاستعماري وتنظيمه وترتيبه الجغرافي هي ذاتها خطوط التداخل التي ستبدأ بها إعادة تنظيم وبناء المجتمعات التي ثارت للتخلص من القوى الاستعمارية. ففي البلاد المستعمرة نكون أمام مجتمعين متعارضين الحدود الفاصلة بينهما حسب قانون هي الجد والآليات العسكرية والأسلاك الشائكة، لذلك في رأيه نكون في هذه الحالة أمام منطقتين يستحيل إيجاد نقطة تواصل أو التقاء بينهما ذلك انهما وفق منطق أرسطو، تخضعان لمبدأ التنافس المتبادل، لذلك حكم قانون حكما نهائيا في تحليلاته باستحالة إيجاد أي نوع التصالح بينهما، مبررا ذلك بحالة الرفاهية المفرطة التي يحياها المستعمرين الأوروبيين في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ودراساتهم، وصحتهم... الخ، فمدنهم كما يصفها فرانز قانون « صلبة مبنية بالحجر والحديد، مدينة أنوارها ساطعة، وشوارعها معبدة بالأسفلت، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون، ولا رأوها يوما، ولا حلموا بها يوما، والمستعمر لا ترى قدميه حافيتين، اللهم إلا على شواطئ البحر، ولكن الآخرين لا يمكن أن يقتربوا منهما اقترابا كافيا، قدما تحميها أحذية متينة، مع أن شوارع مدينتهما نظيفة، ملساء لا قوب فيها ولا حصى» (فانون ف.)، معذبو الأرض، 2015، صفحة 42).

وبالمقابل حالة الفقر والحرمان والغبن والقهر التي يريز تحتها السكان الأصليون المحرومين من أبسط مقومات الحياة الأدمية، تنتفي كل سمات الإنسانية يعبر عنها قانون بحرقة وانفعال حين يصف الحال السيء التي كان عليها السكان الأصليون، والمعاملة اللاإنسانية التي عانو منها من البيض، وفي هذا كتب أن مدن وقرى الأهالي أو السكان الأصليين، « أما القرية الزنجية، أما بلدة الأهالي، أما الحي الذي يحظر على الأوروبيين أن يتجولوا فيه، فهو مكان سيء السمعة يسكنه أناس سيئوا السمعة، فيه يولد المرء أين كان، وكيف كان، وفيه يموت المرء أين كان، وبأي شيء كان، هو عالم بلا فواصل، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض، والأكواخ تنكدس فيه بعضها فوق بعض» (فانون ف.)، 2015، صفحة 42).

يكشف قانون في تشخيصه لقساوة الاستعمار وممارساته العنيفة والعنصرية ضد الأهالي - السكان الأصليين للمستعمرات- يظهر في مختلف مناحي الحياة أين تتجلى الفروق بين عالمين مختلفين منقسمين لا تقاطع بينهما في أساليب العيش ولا المستوى الاقتصادي، عالم الأجانب الغزاة الذين يملكون كل مقومات الحياة والامتيازات للاستفادة من خيرات الأرض التي سلبوها من السكان الأصليين، وعالم الأهالي الذي يريز تحت الفقر والجهل والامية ومختلف أنواع العنف المبطنة عليه من السكان البيض، لذلك يرى قانون في معذبو الأرض أن الطابع الذي يطبع النظام الاستعماري، هو أن الوقائع الاقتصادية، هو أن الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير

الوجود لغت خاصة وإنسانية جديدة، إن محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقا، ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أيه قوة فوق الطبيعة. إن المستعمر " الشيء" يصبح انسانا بمقدار ما يحقق من عمل لتحرير الذات» (فانون، معذبو الأرض، 2015، صفحة 40).

وتبعنا لذلك اذا اخذنا مثلا على ذلك الثورة الجزائرية وهي التي ملكة على قانون كل كيانه، نجد أن القيم التي قامت عليها تلك الثورة ضد الاستعمار الفرنسي إنما قامت بإحياء شعيرة مقدس هي شعيرة الجهاد وقامت على عقيدة لا اله الا الله محمد رسول الله، والله أكبر، والشهادة، وهي كلها قيم دينية مغروسة في عمق الانسان الجزائري واعطت لكفاحه وصبره ووجوده معنا مقدسا، كونه كان وسيضل يستمد العون من الله عز وجل، ولعل هذه من المؤاخذات التي بنى عليها مالك بن نبي موقفه من قانون، وهذا كله يتعارض مع مقولة قانون أن محو الاستعمار هو خلق لرجال جدد، وأن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة، ونشير هنا أن قانون يقيم رؤيته استنادا إلى توجهاته اليسارية التي نبتت في ايدولوجية مادية ماركسية.

وفي تأكيد على ضرورة مواجهة بطش الاستعمار بالقوة والعنف لمحوه والقضاء عليه يقول قانون : «إن محو الاستعمار حين يعرض عاريا، يكشف من خلال مساهماته كلها، عن رصاصات حمر وخناجر دامية، ذلك أن اذا كان على الأواخر أن يصبحوا هم الأوائل، فإن هذا لا يمكن أن يتم إلا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان، إن هذه الإرادة الثابتة التي تريد أن تنتقل الأواخر إلى طليعة الصف، وأن تجعلهم يتسلقون... الدرجات المعروفة التي يتألف منها مجتمع منظم، هذه الإرادة لا يمكن أن تنتصر إلا إذا أُلقت في الميزان جميع الوسائل، ومنه وسيلة العنف طبعا» (فانون، معذبو الأرض، 2015، صفحة 40)، لأن انسان عاش لسنين تحت الاكراه، الكراهية، المنع، الاحتقار، الاستغلال، وكل ضروب التضييق لابد انه مهيا للثورة، لأنه أدرك بفعل تلك الظروف التي عانى منها لسنين طوال أن ذلك لا يمكن تغييره إلا بالقوة والعنف.

فزوال الاستعمار حتمية لا مفر منها مهما كانت الأساليب المستخدمة عنيفة في اعتقاد قانون، لأن « العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسم، ومن نافل القول طبعا، على صعيد الوصف، ان نذكر أن هناك مدنا للسكان الأصليين ودنا للأوروبيين » (فانون ف.)، 2015، صفحة 41)، وفي ذات السياق يضيف مبينا أن الامر نفسه بالنسبة للمدراس وباقي مجالات الحياة بل هناك امتيازات كثير يستأثر بها الأوروبيين ويحرم منها السكان الأصليين، رغم الآثار السلبية لهذا النوع من التمييز العنصري الذي عانى منه النوع في المارتنيك وأفريقيا وغيرها من المناطق المستعمرة، إلا أن قانون لمح في ذلك نوع من التمايز يساعد في أمر مهم هو أننا نستطيع عندئذ أن نبرز بعض خطوط القوى التي يضمها.

تفوح منه رائحة الموت ، فهو عنصر مخرب يشوه كل ما له صلة بالجمال والأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل إلى إصلاحها.

إن هذا الموقف الراديكالي الذي عبر عنه قانون في معذبو الأرض من الاستعمار إنما جاء من هول ما شاهده من فظاعة ما فعله الاستعمار الفرنسي ضد الأهالي من تعذيب، تنكيل، وتجويع، وما شاهده من تمييز عنصري ضدهم، وما سمعه من مواقف فكرية وسياسية وحتى دينية مؤيدة للاستعمار ومنكرة لحق الشعوب المستعمرة في الحياة، فيذكر من المواقف السياسية المقرفة والملعونة لأحد ساسة الاستعمار الذي يدعى " مسيو ماير " حينما قال في « الجمعية الوطنية الفرنسية » : إن علينا أن لا نلوث الجمهورية بإدخال الشعب الجزائري إليها، ذلك أن القيم تتسم على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمر « (فانون ف، 2015، صفحة 44)، لأنه يعتقد أن عادات السكان الأصليين للمستعمرات وتقاليدهم، وخرافاتهم، هي دليل على الانحطاط وفساده في تكوينه الذاتي، معتبرا أن الأهالي وباء يجب أن لا يقربه الأوروبيون إذا ما أرادوا إصلاح مجتمعاتهم.

ويضيف قانون مبينا في معذبو الأرض أن هذا لم يكن موقف ساسة الاستعمار بل حتى الكنيسة التبشيرية كانت وظيفتها الجهرية والرئيسية هي خدمة الاستعمار والسكان البيض، بل يشير أنها انحرفت عن رسالتها الدينية الأصلية التي هي هداية الناس الى الله، وفي هذا يقول قانون «إن الكنيسة في المستعمرات هي كنيسة البيض، كنيسة أجنب، إنها لا تدعوا الإنسان المستعمر إلى طريق الله، إنما تدعوه إلى طريق الإنسان الأبيض، إلى طريق السيد المتسلط، إلى طريق المضطهد الغاشم» (فانون ف، 2015، صفحة 44).

إنها ثنائية السيد والعبد، المتحضر والهمجي، الأبيض والأسود الحاضرة في كل خطابات وممارسات المنظومة الاستعمارية التي تعبر عنها كل مؤسساتها السياسية، العسكرية، القضائية، الدينية، الثقافية، والإعلامية، فهي قد جردت المستعمر من إنسانيته، اعتبرته حيوانا، فلغته التي يصفون بها السكان الأصليين هي ذات العبارات والألفاظ التي يصفون بها الحيوانات، ويذكر لنا هنا قانون جملة من العبارات كان يوصف بها الأهالي من قبل المستعمر، "قطعان الأهالي"، "تفريخ السكان"، "زحف العرق الأصفر، تنمل الجماهير"... الخ

لذلك رأى قانون معارك الكفاح ضد الاستعمار هي معارك لاستعادة إنسانية الشعوب المستعمرة، وإعادة بعث هوياتها المستلبة من قبل الاستعمار، لأنه يعتقد أن «الحقيقة الإنسانية في حد ذاتها ومن أجل ذاتها لا تتوصل إلى الاكتمال إلا في الكفاح وبالمخاطر التي يولدها الكفاح» فالحرية لا تعطى وإنما هناك ائتمان باهظة تدفع للضفر بها، لأنه من دونها تصبح الحياة عدم وبلا قيمة ولا معنى.

في طراز المعيشة، لا تستطيع أبدا أن تحجب الوقائع الإنسانية. حين ندرك النظام الاستعماري في واقعه المباشر، نلاحظ أن ما يقسم العالم إنما هو أولا انتساب المرء أو عدم انتسابه إلى نوع معين، إلى عرق معين: إن البنيان التحتي الاقتصادي هو في المستعمرات بنيان فوقى أيضا، السبب هنا نتيجة: المرء غني لأنه أبيض، وأبيض لأنه غني . بناء على هذه التحليلات التي تتخذ من الماركسية أرضية لتحليل الظاهرة الاستعمارية، مؤكدا أن الأجنبي جاء إلى المستعمرات من مكان آخر، وفرض نفسه بالقوة العسكرية، بالمداغ والرشاشات، بالقتل والتخويف والتعجير، وبشتى أنواع العنف من قتل وإبادة جماعية، واحتقار لكل ما يرمز لخصوصية الأهالي من لغة وعادات ومعتقدات.

لذلك يرى أن العنف الذي قام عليه النظام الاستعماري في مختلف البلدان المستعمرة عمل على تحطيم كل صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الأصليين، وافسد نظامها الاقتصادي، بل امتد شر الاستعمار لتغيير مختلف أشكال المظهر، والملبس، سيطالب به الاستعمار وسيتولاه ، وكل هذا يراه فرانس قانون سبب كاف للسكان الأصليين - إذا كانت لديهم رغبة في الحياة مثل بقية العالم ودخول التاريخ، واثبات وجودهم- أن يعملوا على تقويض الاستعمار وتحطيمه، هذا النوع من التحطيم للعالم الاستعماري الذي دعا له قانون لا يحتمل بقاء سوى جهة واحدة والأخرى تدفن تحت الأرض، فالأمر يتجاوز إزالة الحدود بين المستعمر والسكان الأصليين ولا يحتمل بقاء مسارات بين المنطقتين، بقاء احدهما يستلزم بالضرورة زوال الأخرى. فالصراع عنها ذو طابع وجودي لا يحتمل بقاء الطرفين على نفس الأرض، وفي هذا يؤكد قانون أن «تحطيم العالم الاستعماري لا يعني إلا شيئا واحدا هو إزالة إحدى هاتين المنطقتين، فإما دفنها في أعماق أعماق الأرض، أو طردها من البلاد» (فانون ف، 2015، صفحة 43).

بل يذهب قانون في تحليلاته لمخاطر الاستعمار على وجود السكان الأصليين إلى التأكيد على أن العمل على تغيير العالم الاستعماري في البلاد المستعمرة، لا يرنو لتحقيق المساواة بين البشر، فهو ليس مجرد صراع عقلي وفكري بين وجهتي نظر مختلفتين، إن تغيير الواقع الاستعماري، إنما هو تحطيمه، إنما هو فرض لوجود وأصالة الأهالي بكل أبعادها بالعنف، فالاستعمار لا يمكن بأي حال من الأحوال التعايش معه، ذلك لأنه نظام ثنائي قائم على التمييز واحتقار شعوب المستعمرات وإلغاء كل مقوماتها وهويتها ووجودها الحضاري، و إنكار أي بعد أخلاقي أو قيمى عن الشعوب المستعمر، كأنهم ليسوا بشرا، بل يعتبرهم كائنات ضارة لا تستحق الحياة ولا يمكن التعايش معها، لذلك فمقاومة الاستعمار للقضاء عليه، تستند الى ضرورة الاعتقاد الجازم من الشعوب المستعمرة أن يعتقد جازما أن المستعمر هو روح الشر وخلاصته، فالمستعمر بهذا المعنى هو الشر المطلق، إنه عنصر ضار يفسد كل ما يقابله

موقفه من الثورة الجزائرية

جعل الجزائريين جزء من فرنسا، وكان الأمر واقع يتعذر أو لا يمكن تغييره، صاغ موقفه هذا متجاهلا كل حقائق التاريخ والواقع التي تثبت أن الجزائر ليست فرنسية بل هي دولة وأمة متميزة بذاتها، وفي هذا يقول كامو «لقد حاولت في هذا الاطار تحديد موقف بوضوح بأن الجزائر مكونة من شعوب فدرالية موحدة ومرتبطة بفرنسا، تبدو لي أفضل بدون مقارنة ممكنة في نظر العدالة البسيطة هي جزائر مرتبطة بالإمبراطورية الإسلامية» (عمراني، 2005، صفحة 58)، كامو هنا يعلن فصل الجزائر عن انتماءها العربي الإسلامي والأفريقي، ليربطها ربطا قسريا بفرنسا الاستعمارية متجاهلا كل حقائق الواقع والتاريخ الذين يكشفان بوضوح حقيقة لا لبس فيها، حقيقة أن الجزائر عربية أفريقية جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي لها هويتها الحضارية التي لم يستطع الاستعمار طيلة قرن واثنان وثلاثون سنة الغاءها أو محوها.

يتضح موقف فانون العامل لصالح ثورة التحرير الجزائرية بشكل جلي إذا ما قارناه بموقف فرنسيس جونسون والذي كان بدوره من مؤيدي ثورة التحرير الجزائرية، وعن ذلك كتب محمد الميلي مبينا أوجه الاختلاف بين الرجلين في موقفهما من الثورة الجزائرية - رغم أن كلاهما كان مؤيدا للثورة - قائلا «في رأيي يرجع إلى أن منظور الرجلين بدأ يختلف ... ففرانيس جونسون كان يشتغل في تنظيم فرنسي يساعد جبهة التحرير، أما فانون فقد تهيأ لقطع كل صلة بماضيه... كان يتهيأ لأن يصبح جزائريا... لأن يندمج كلياً في الثورة الجزائرية، لأنه وجد في هذه الثورة ضالته، انها هيأت له فرصة الانتماء الى وطن أفريقي يحل مشكلته ويشبع نضاله وحماسه للعمل، ومن ثم أصبح يشعر أنه ارتقى الى مرحلة اسمى من مراحل العمل النضالي... ومن هنا لا شك تعاليه على اليسار» (الميلي، 2009، صفحة 104)، أي انه تجاوز الاطار الأيديولوجي الذي كان ينتمي اليه وقطع صلته النضالية به، فالان صار له وطن، يناضل لا لينظر للنضال، عنده شعوب ينتمي اليها ويناضل لأجلها بعيد عن كل المؤسسات والاطر السياسية والأيديولوجية الفرنسية.

موقفه هذا جاء منسجما مع طروحاته بشأن كفاح الشعوب المضطهد وقضايا التحرر في العالم الثالث، فهو «يرى أن هناك قوى اجتماعية في دول العالم الثالث يمكن وصفها بأنها قوى ثورية، تساهم بشكل كبير في دفع عملية التحول الاجتماعي، من تحقيق التحرر الوطني، بمشاركة الفعالة في مقاومة الاستعمار، بحيث تلك القوى أن السبيل الوحيد - الذي لا بديل له - للمقاومة هو الكفاح المسلح والرد على العنف الاستعماري بعنف مضاد» (فياض، 2017، صفحة 03).

يذكر الميلي أنه كانت الثورة الجزائرية عندما أنظم اليها فرانس فانون قد تجاوزت النطاق المحلي، وأصبحت موضوع تعاليق السياسة والدبلوماسية في أنحاء العالم، وفي مقدمتهم

لم يتشكل موقف فانون المساند للثورة الجزائرية من فراغ أو صدفة إنما ساهم في تشكله عدة معطيات فكرية، سياسية، واجتماعية، وتاريخية، تكشف عنها سيرته والمواقف التي عاشها وهو ضمن المؤسسة الاستعمارية كطالب، ثم كجندي، وأخيرا كطبيب، يشير الميلي الى دور عمله كطبيب في مستشفى الامراض العقلية بالبلدية في تغير موقف من الاستعمار بل اعتبره السبب الرئيسي في تدهور الصحة النفسية والعقلية لسكان المستعمرات، نظرا للظروف الاجتماعية، الاقتصادية، الصحية والسياسية السيئة جدا، اكتشف ذلك من خلا تجارب العلاج النفسي التي حاول تطبيقها على المرضى الذين كان يشرف على علاجهم حيث «اصطدم بصعوبات جمة لأن الأساليب التي جربت مع الأوروبيين لا يمكن أن تنجح هي نفسها مع مرضى جزائريين تختلف بيئتهم الاجتماعية عن البيئة الأوروبية، وشيئا فشيئا اكتشف فانون ان هذا الاختلاف يرجع الى عوامل وأوضاع سياسية، كما اكتشف عوامل الجنون التي ترجع الى الوضع السياسي للسكان المحليين، أي أصناف المرض العقلي التي تسبب فيها الاستعمار» (الميلي، 2009، صفحة 21).

كما كان لتجربته في القتال في صفوف الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، وتجربته كنزجي في جزيرة المارتنيك، ساهمت في تكوينه موقفا راديكاليا - كما أشرنا سالفا - من الاستعمار، وتجربته مع الثورة الجزائرية جعلت موقفه أكثر تطرفا من الاستعمار، بل أعادته إلى أصوله الإفريقية، وموقفه من الثورة الجزائرية عبر عنه بوضوح في مقدمة كتابه لعام الخامس للثورة حينما كتب قائلا «فما نريده نحن الجزائريين هو اكتشاف الإنسان فيما وراء المستعمر، هذا الإنسان الذي هو في ذات الوقت... لنظام كان كتم أنفاسه وألزمه الامتناع عن الكلام» (فانون ف، 2004، صفحة 21)، ويضيف في ذات المقدمة «أما نحن فإننا قد أعدنا منذ شهور طويلة، اعتبار الإنسان الجزائري المستعمر، فقد انتزعنا الإنسان الجزائري من برائن الاضطهاد الزمن الذي لا يرحم وانتصبنا واقفين وها نحن نتقدم الآن فمن ذا الذي يستطيع أن يعيدنا إلى العبودية» (فانون ف، 2004، صفحة 22). فهو بهذا المعنى غير المعسكر الذي ينتمي اليه بل أعلن قطيعة مع ماضيه الفرنسي الاستعماري، وتميز موقفه حتى عن بعض زعماء اليسار الفرنسي الذين دعموا الثورة الجزائرية، بل عاد إلى أصوله الإفريقية، والانتماء لها والاهتمام بكل قضايا التحرر فيها، وانتقل من مساند للثورة الى صانع للحدث بل صار من بين العاملين في الصفوف الأولى في الثورة لاستقلال الجزائر، وكل البلدان المستعمرة.

موقفه هذا يختلف جذريا عن مواقف الكثير من النخب الثقافية الفرنسية فعلى سبيل المثال تميز في موقفه عن ألبير كامو الذي قد جعله البعض من المتضامنين مع معاناة الجزائريين، إلا أنه لم يتمكن من بناء موقف حاسم من الاستعمار، بل سعى إلى

كل هذا ساهم في جعل فكره ومواقفه أكثر تطرفاً وثورية من الاستعمار، فجعل ذلك منه مناضلاً في صفوف جيش التحرير الوطني الجزائري إذ كلفه قادة الثورة بعدد المهام، بل كان ممثلاً للثورة الجزائرية في الكثير من المؤتمرات الإفريقية، بل كان يوجه كتاباته للنخب الفرنسية لتغيير موقفها من الاستعمار الفرنسي، ولكسب تعاطفها مع ثورة الشعب الجزائري، بل امتد تأثيره حتى على بعض النخب الجزائرية التي ترددت في حسم موقفها من الثورة ومقاومة الاستعمار، والالتحاق بالثورة فهذا زهير إحدادن يقول «التحقت بالثورة... بمناسبة محاضرة لفانون» (عيسى، 2018، صفحة 87).

وبعد ما قطع الكفاح المسلح ضد الاستعمار أشواطاً مهمة وازدهرت العمليات العسكرية ضد الاستعمار ومصالحه، كان رد الفعل من الاستعمار أيضاً بشعاً ولم يأتي شيء في طريقه إلا أباده، وعمل المستعمر على حشد الرأي العام العالمي ضد الثورة الجزائرية في مختلف المحافل الدولية وقد لاقت السياسة الاستعمارية ضد كفاح الشعب الجزائري دعماً من قبل حلفاءها التقليديين الذين هم بدورهم يستعمرون شعوباً أخرى، في ضل هذا الموقف كان على الشعوب الإفريقية المستعمرة أن تحيي وتقوي التضامن فيما بينها لدحر الاستعمار.

في المناخ الإفريقي الثوري الذي شكلت الثورة الجزائرية قاطرته، سيتبلور موقف قانون من قضايا التحرر في إفريقيا فاشتغاله بجريدة المجاهد كان على اطلاع دائم بما يحدث في البلدان المستعمرة وما تعانيه شعوبها، بل كان يصله صدى النفس الثوري الذي سرى في البلدان المستعمرة. ووجد قانون أن ما كان يبدو له بالأمس حلماً أو خيالاً صار حقيقة، خاصة عندما كلفته الثورة الجزائرية بمهام في عديد الأقطار الإفريقية المستعمرة، خلال هذه المهام اكتشف قانون الميدان الواسع للمعركة ولمس تداخلاتها، وتأكد أنه يشمل مختلف أقطار العالم الثالث، حيث تعيش شعوب مقهورة ومسحوقة، في مواجهة أعتى وأساء قوى استعمارية في تاريخ البشرية.

ولابد أن نشير هنا أن القول بتأثير الثورة الجزائرية على أفكار قانون ليس معناه أنها المصدر الوحيد لأفكاره، بل مختلف دراساته ومطالعته سمحت له بالتأمل في عمق الظواهر التي لاحظها في الثورة الجزائرية، ولا نكتفي بذلك بل استفاد حتى من تجارب البلدان الإفريقية التي استقلت أواخر الخمسينيات، وذلك حينما حذر من بعض المثقفين واعتبرهم الأطفال المدللون لاستعمار الأمس ولحكوماتهم الوطنية فيستغلون الأزمات للصعود عن طريق الحيل والسرقة (لوني، ب ت، صفحة 75).

وعن دعمه لجيش التحرير الوطني الجزائري في معركته ضد الاستعمار أعلن قانون «إن حياة بندقية أو عضوية جيش التحرير الوطني هي الفرصة الوحيدة المتبقية أمام الشخص الجزائري، لكي يعطي معنى لموته، ذلك أن الحياة في ظل

البلدان الإفريقية، وقد ظهر اهتمام الشعوب الإفريقية بهذه الثورة في أشكال مختلفة تمثلت أحياناً في قيام بعض المناضلين بالاتصال بقيادة جيش التحرير يطلبون منها المساعدة حتى يتمكنون من الأعداد للثورة المسلحة في بلادهم. ويضيف الملي في ذات السياق في تحليله للسيرة النضالية لفانون أنه حقق في ما بين 1952-1963 تطوراً فكرياً كبيراً، فقفز من التمرد الفردي على الزنوجية إلى الثورة الوطنية القومية في نطاق حرب التحرير الجزائرية، إلى نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث، لأن الثورة الجزائرية نفسها اتاحت له اتصالات جديدة مع العالم الخارجي وأمدته بتجربة ضخمة أدت به إلى أن يعيد النظر في اتصالاته وأفكاره القديمة ويتخذ منها موقفاً نقدياً خلاقاً.

لقد أدرك قانون خلال اشتغاله بالمجاهد في الثورة الجزائرية انفتاحها على إفريقيا، ولا ريب أن هذا «أعاد لذهنه من جديد تلك المشكلة التي واجهته في خضم الحرب العالمية الثانية عندما عرف حقيقة "الخطأ الأبيض الكبير" وراح يبحث عن حل بديل في أصوله الإفريقية البعيدة... وفي الوقت الذي بدأت فيه بعض البلاد الإفريقية في استلهاً التجربة الجزائرية لخوض غمار معركة مسلحة، كانت الأجهزة الاستعمارية الفرنسية تشتغل ليل نهار لفصم التضامن الطبيعي لإفريقيا السوداء مع الجزائر، وتخطط مخططات الاستعمار الجديد، لتحل محل الاستعمار القديم» (الملي، 2009، صفحة 25)، في ظل هذه المعركة المحتدمة ضد الاستعمار بدأت تتحدد معالم الطريق الإفريقية للتحرر والانعتاق من الاستعمار والتوجه نحو الوحدة لأن مصير شعوبها واحد يتطلب تضافر كل الجهود لتحقيق حلمها بتحقيق وجودها الكامل الغير المنقوص.

هذا الموقف المشبع بقيم الكفاح والنضال ضد القوى الاستعمارية في العالم الثالث عامة إنما كان بفعل عدة عوامل من بينها: ميوله الفكرية التي كشفت عن تأثره بتيارات الفلسفة الإنسانية الغربية التي كانت تتعاطف مع قضية الإنسان. مثل الفلسفة الماركسية، والفلسفة الوجودية والتي كانت له علاقات قوية مع أبرز اعلامها خاصة جون بول سارتر الذي كتب له مقدمة لكتابه المعنون "في العنف". إضافة إلى فهمه الجيد والعميق لطبيعة الاستعمار ولحقيقته من خلال ممارساته البشعة ضد الأهالي التي عايشها وكان ناقماً جداً عليها، هذا الإدراك الجيد لحقيقة الاستعمار بعمق كشف عنه من خلال كتابه في العنف الذي أوردنا بعضاً من نصوصه سابقاً عندما بينا موقفه الرافض للاستعمار، ولإعطائه المشروعية للعنف الذي مارسه الحركات الثورية في العالم المستعمر، مهما كانت أساليبه وأدواته، لأن في اعتقاده رد فعل عن عنف استعماري فاق كل الحدود واخترق كل الممنوعات والشرائع، لم يوفر أي شكل من أشكال العنف لقهر الشعوب المستعمرة، والامعان في قهرها وإذلالها وسلب كل مقومات الوجود والحياة عنها.

من المثقفين الأجانب الذين وضفتهم الثورة للدفاع عن حق الجزائر في الاستقلال، إلا أن تميز موقفه الذي كان أكثر ارتباطا بالثورة الجزائرية بل قدم لها الكثير، إذ فضل الاستقالة من العمل في المؤسسات الخاضعة للاستعمار الفرنسي، وأعلن ولاءه الكامل والمطلق وغير المشروط للقضية الجزائرية، وقضايا التحرر في إفريقيا، لدرجة ارتباطه بالجزائر حتى وهو في مرضه الذي مات به في أمريكا فضل أن يدفن بتراب الجزائر، وفعلا لبث الجزائر طلبه ونقلت رفاته إلى الجزائر من تونس التي دفن بها إبان الاستعمار بعد أن تولى بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية يوم السادس من سبتمبر العام 1961.

كما نشير إلى أن الظاهرة الاستعمارية إذا ما تأملنا التحليلات التي قدمها فرانس فانون بشأنها، تبقى واحد عبر مختلف العصور كون سماتها تبقى نفسها كونها تتخذ من العنف أسلوبا مركزيا ومحوريا في تنفيذ مشاريعها، الأمر سيان سواء كان الاستعمار إحتلاليا استعمارا لفترات معينة وهو ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام، اليابان، العراق، أفغانستان، كلها تقوم نفس الممارسات، فالاستعمار يقوم على نفس السياسات التي تهدف لتخريب كل النظم السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، القيمة السائدة في الدول التي يحتلها، بل يسعى لتطبيق سياسة تخريب النسيج الاجتماعي لتلك البلاد، كمثل ذلك يقوم به تحت شعارات براقة تارة باسم الحضارة، وأحيانا باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان، والعدالة، لكن كل الدول التي تم استعمارها انتهت إلى الانهيار والخراب والتفكك، وما يحدث في البلدان العربية -التي وطأها أقدام الجيش الأمريكي وبقيّة الجيوش الغربية- من فوضى وتفكك عنا ببعيد.

لذلك نقول في الأخير ما قاله المفكر الجزائري مولود قاسم نايت بلقاسم في توصيف للاستعمار، بأنه استخرا ب وليس استعمار، لأنه يقوم على التخريب ولا يقوم بأي تعمير، بل يخرب البلاد المستعمرة وينهب خيراتها ليعمر بلدان الغرب،

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

- المصادر والمراجع

- إكرام بن عيسى. (جانفي، 2018)، حياة فرانز فانون ونضاله مع الثورة الجزائرية، ن العدد الثامن، جانفي، ص 82. مجلة القرطاس (8)، 82.
- حسام فياض. (2017). رؤية فرانس فانون لقوى التحول الاجتماعي تحطيم الاستعمار (الإصدار 1). ب م: الناشر نحو علم اجتماع تربوي.
- رايح لونيبي. (ب ت). دراسات حول أيديولوجية وتاريخ الثورة الجزائرية. الجزائر: كوكب العلوم للنشر.
- عبد المجيد عمراني. (2005). جون بول سارتر والثورة (1954-1962). الجزائر: دار الهدى.
- فرانز فانون. (2004). -، العام الخامس للثورة، ترجمة: ذوقان فرقوط، ص 21 (الإصدار 4). الجزائر: دار الفارابي.
- فرانس فانون. (2009). فرانس فانون والثورة الجزائرية. الجزائر: وزارة الثقافة.

السيطرة قد غدت منذ زمن طويل خالية من المعنى « (فانون فد، 2004، صفحة 14)، ذلك أن الكفاح المسلح لتغيير الواقع الاستعماري ونيل الحرية صار أمرا واقعا بالنسبة للجزائريين لا يمكن بأي حال التراجع عنه أو حتى مجرد التفكير في ذلك من المستحيلات، لأنه لا خيار أمامهم إذا ما راموا الاستقلال عن فرنسا، وبناء دولتهم الحرة.

إن هذا اللقاء بين فانون والثورة الجزائرية أسال الكثير من الحبر، حيث اعتبره البعض منظر الثورة الجزائرية، واستقر في أذهان الكثيرين أن تأثر وتأثير فانون في الثورة كان حاسما، بل هناك من الباحثين الغربيين من بالغ في تضخيم دور فانون وتأثيره على مجرى الثورة الجزائرية، هذه المبالغة في اعتباره منظر الثورة يرجعها محمد الميلي لعدة عوامل :

- فهو يعتقد أن معظم الذين كتبوا عن فانون لم يكونوا مطلعين على تاريخ الحركة الوطنية في الجزائر وعن اتجاهاتها الفكرية

- كما كانت الثورة الجزائرية في نوفمبر 1954 مفاجئة للجميع، وكان رد الاستعمار الفرنسي هو إنكار إمكانية انبثاقها من الداخل، لأن الاعتراف بمصدرها الداخلي هو اعتراف بالواقع، وما من شأنه نسف كل الأرضية التي يقوم عليها الاستعمار.

- وهناك الكثير ممن بحثوا في فكر فانون وسيرته، ركزوا على كتاباته التي ظهرت في ظل الثورة الجزائرية، وبالتالي غفلوا عن إجراء مقارنة علمية وشاملة بين ما كتبه قبل انضمامه للثورة الجزائرية، وبين ما كتبه بعد انضمامه لجبهة التحرير الوطني (الميلي، 2009، صفحة 32).

لكل ذلك يضيف محمد الميلي عامل آخر ساقهم لهذه المقاربة الخاطئة لعلاقة فانون بالثورة ومدى تأثيره فيها - وإن كنا لا ننكر فضل الرجل والخدمات التي قدمها للثورة- يبدو أن هناك أيضا جهل لدى هؤلاء بالتاريخ النضالي للشعب الجزائري، الذي لم يتوان عن مقارعة الاستعمار منذ وطأة أقدامه أرض الجزائر، فما تخبوا ثورة إلا وتندلع أخرى، فقد سجل التاريخ بأحرف ناصعة مقاومة الأمير عبد القادر، أحمد باي، المقراني، الحداد... إلخ، كلها معاركة كلفت المستعمر الكثير وأبقت على جذوة العداوة للاستعمار مستعرة على مدار عقود، وأعقبتها الحركة الإصلاحية بزعامة ابن باديس والبشير الإبراهيمي والزعيم المبارك من علماء الجزائر حينها، وفي الخط السياسي عمل مختلف التيارات السياسية على رأسها حزب الشعب على السعي والنضال السياسي والنقابي لاسترداد حقوق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، ولا ينكر فضل هؤلاء الرجال الأجاد.

الخاتمة

في الختام نشير إلى فرانس فانون فقد كان من ضمن نخبة

فرانس فانون. (2015). معذبو الأرض (الإصدار 2). (سامي الدروبي، المترجمون)
القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

محمد الملي. (2009). فرانز فانون والثورة الجزائرية. الجزائر: وزارة الثقافة
الجزائرية.

- كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

براشد بخدة (2025)، الظاهرة الاستعمارية في فكر فرانس
فانون، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية،
المجلد 17، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف،
الجزائر، ص:ص: 141-149.